

المجلد 09 / العدد 02 / ديسمبر (2025)، ص.ص. 172-180

الخطاب التقديمي في الموروث العربي - الحضور والغياب -

The introductory discourse in the Arab heritage - presence and absence -

د. العربي مصابيح

arabi.misabih@univ-mascara.dz

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/09/06

تاريخ الاستلام: 2025/07/05

ملخص:

تعتبر العتبات التي تتقدم النص وتقدمه بنى نصية لغوية وأيقونات ذات دلالات تتصدر النص المتن وتتوسطه وتعقبه لنتج خطابات واصفة له تتضمن دلالات ووظائف وتراكيب وأشكال وأجناس مختلفة تدفع القارئ لاكتشافها ومعرفة أسرارها، ومن أبرز هذه النصوص المقدمة الموازية: العنوان، والإهداء، والتصدير، والتوطئة، والمدخل، والمقدمة... وهي بحكم وظيفتها الاستهلالية تختلف عن المتن، وتحكمها بنيات ووظائف مغايرة له أسلوبا وتركيبا حيث تتفاعل معه عبر مستويات متعددة دلالية وإشارية وإشهارية، فتشير إلى دلالاته دون أن تصرّح، وتبقى متصلة به اتصالا وثيقا على الرغم من الانفصال الظاهري والتباعد الذي يظهر بينهما أحيانا، ونحاول أن نقف في هذه الورقة على أهم تجليات الخطاب التقديمي في الموروث النصي العربي، وتشكله وتطوره وتنوعه عبر المسارات الزمنية المتعاقبة، وكذا من خلال تنوع الفنون الأدبية وتجديدها، حيث أصبح ينحو تجاه خطاب مستقل له أدواته وإجراءاته ونظريته، كمنظرة العنونة والمقدمات والعتبات، وذلك لتأصيل هذا الخطاب وإخضاعه للتحليل المنهجي، والدراسة النقدية.

كلمات مفتاحية: الخطاب؛ التقديمي؛ العتبات؛ النص الموازي.

Abstract:

The thresholds that precede and present the text are considered linguistic textual structures and icons with meanings that precede, mediate, and follow the text to produce descriptive discourses that include different meanings, functions, structures, forms, and genres that push the reader to discover them and know their secrets. The most prominent of these parallel introductory texts are: the title, dedication, preface, introduction, introduction, and preface... By virtue of their

introductory function, they differ from the text and are governed by structures and functions that are different from it in style and composition, as they interact with it semantically and allusively, indicating its meaning without stating it, and remaining closely connected to it despite the apparent separation and distance that sometimes appears between them. In this paper, we try to stand on the most important manifestations of the introductory discourse in the Arabic textual heritage, and its formation, development, and diversity across successive time paths, as well as through the diversity and renewal of literary arts, as it has become inclined towards an independent discourse with its tools, procedures, and theory. Such as the title, introductions and thresholds, in order to establish this discourse, study it and subject it to critical methodological study

Keywords: Discourse; introductions; thresholds; parallel text.

مقدمة:

لقد أسهمت دور الطباعة والنشر في تسويق هذه المصاحبات النصية من خلال توظيف تقنيات جالية وحداثية كانت دافعا لجذب القارئ والتأثير في اختياراته انطلاقا من غلاف الكتاب وعنوانه والصور ونوع الخط وغيرها من المشكلات الخارجية للكتاب. ويبدو أنّ الاهتمام بعتبات النص ليس وليد الدراسات الحديثة، وانتشار حركة التأليف والتحرير والطبع وما صاحب ذلك من وسائل أغنت النصوص الموازية شكلا ومضمونا، بل إنّ حركة التأليف العلمي والأدبي عرفت منذ القديم.

بدأ المؤلفون بالاهتمام بتحسين مطالعهم ومقدماتهم شعرا ونثرا، حتى وإن لم تكن هذه الجهود لترتقي إلى مستوى النضج الحالي نظريا ومنهجيا وإجراء، وظلّ ينمو شيئا فشيئا ويتجدّد انطلاقا من من مستوى وعي القدماء بأهمية هذا الخطاب المقدماتي ودرجة تفاعل المتلقين معه، وما صاحب ذلك من تطور ملحوظ لفنون الأدب وثرائها خاصة في العصر العباسي وما بعده، وما استجدّ من تطور اجتماعي وسياسي وثقافي، الأمر الذي ولّد رصيда جديدا من المصطلحات اللغوية والعلمية والفقهية، انطلاقا من تبنيهم للمنهج اللغوي الوصفي والشبكة الاصطلاحية التي وظّفها العرب القدامى في معرض مقارنتهم لما يصطلح عليه في اللغات الواصفة بعتبات النص، من أجل الوقوف على أهمية هذه المقدمات وما تبينه من مقاصد وأهداف يرومها الكاتب ويريد أن يرسلها للجمهور من خلال الكشف عن دلالات النص وبيان خصائصه الفنية والجمالية، من خلال النص الاستهلالي، وليس ذلك على حساب المتن والنص الأم الأصل ولكن خدمة له وبيانا لما قد يستغلق فيه من فهم ومعاني ودلالات. وهذا لا ينفي أن العرب اهتموا بالمتن أكثر من الهامش وما ما يصاحب النص من مداخل ومقدمات، حيث هذه الأخيرة إلى وقت قريب هامشا لا قيمة له ومحطة عبور لا يقف عندها المؤلف ولا القارئ إلا قليلا..

التقت العديد من أحكام العرب ورؤاهم لفنون الكتابة والتدوين وخصائص صناعة المؤلفات وتقديمها للقارئ في شكل لطيف يستمدّ ثقافته من جملة من المبادئ النظرية التي قامت عليها النصوص المصاحبة أو الموازية في البحوث النقدية

الحديثة، ممثلة في تمييزهم بين مستويين من الخطابات النبوية النصية لكل مؤلف؛ أحدهما (المتن) أم وأساس وأصل، والآخر مُصاحب وموازٍ.

فأما الأول-النص الأم- فمقتله متن الخطاب الذي يريد المؤلف إرساله وإبلاغه إلى القراء المفترضين بما يحمل هذا الخطاب من مُرسلات تشكل دافع الكتابة وأهدافها، أما بنية النص الثانية فتجسدها مجموعة العناصر التي تصاحبه وترافقه وتسبقه في أغلب الأحيان مشكلة عتبة أولى، واصفة للخطاب الأول ومقدمة إيّاه للقارئ، ويتحدد نسق هذه العناصر فيما اصطلح عليه في الدراسات النقدية الحديثة بالعتبات النصية أو النصوص الموازية، ومن أهمها العنوان، والمدخل، والمقدمة...

ومن الصعب جدًا الحديث عن الإرهاصات الأولى لبدايات الوعي العربي بهذه الأفانين، وتحديد زمن معين لها، لأن الكثير من الكتابات العربية أثناء فترة الجاهلية وصدر الإسلام ضاعت، ولم يصلنا منها ما يفيد في ضبط وتحديد عناصر تصديرها وتقديمها واستهلالها، "خاصة دواوين القبائل العربية والمراسلات بين أسيادها وتجارتها، وصحف المداينات بين أفرادها وسائر العقود والمعاملات المدونة."¹

لم يعن العرب في البداية على نحو دقيق وواضح بالمكملات والعناصر الموازية التي تصاحب النص، ويبدو أنهم اهتموا بالمتن على حساب ما صاحبه من مميزات، ولم ينتبهوا إلى ذلك إلا بعد تطور تقنيات الكتابة ومنهجات التأليف وشيوع الترجمات، فبدأ ينشأ هذا الوعي ويتنامى بدرجات متفاوتة، إلى أن تمثل بعد ذلك في مؤلفات خاصة أفردت لذلك من بينها كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة (ت276هـ) وأدب الكتاب للصولي (ت335هـ)، والاقضاب بشرح أدب الكتاب للبطلوسي (ت521هـ)، وأحكام صناعة الكلام للكلاعي (تمنتصف ق6هـ)...

ولا تنحصر قيمة هذه المصنفات في كونها تحدد الخصائص النبوية لعناصر الخطاب الواصف للنص الأم ووظائفها التداولية بالنسبة للكتاب والكاتب والقارئ، وإنما تكشف كذلك التجليات الأولية لما يستحق "النص الموازي" أو "عتبات النص"، كما أنها تمكّن من رصد التحولات والتطورات التي ميّزت بنيتها منذ شيوع الكتابة والتدوين عند العرب.

اهتم العرب بعتبة المقدمة منذ عرفوا الشعر والخطابة وبدايات الأسواق والمناظرات الأدبية والظواهر النقدية الأولى، والتراث العلمي والأدبي الذي ينم عن سبق ملاحظ للعرب والمسلمين في اهتمامهم بالمطالع والفواتيح وأدبيات الاستهلال والمقدمات الطللية، صحيح لم تعرف هذه المسميات الحديثة كالعتبات والموازيات والمصاحبات، وأغلب ما كان يطلق عليها استهلال أو استفتاح أو تذييل في آخر النص، ولم يفهموها ربما بالفهم الجديد الذي أشار إليه جينيت في كتابه (عتبات) من قواعد في صناعة التأليف وما يتصل بها من مراحل حتى يخرج المؤلف كاملاً، ولكنهم كانوا يعتبرون حسن الابتداء من ذكاء المؤلف وحرصه على التأثير في سامعيه، حيث يقول الكرمي: "وكذلك ينبغي للخطيب إذا ارتجل خطبة، والبليغ إذا افتتح رسالة، أن يكون ابتداء كلامه دالاً على انتهائه، فالابتداء أول ما يقرع السمع، فإن كان عذبا، حسن التركيب، صحيح المعنى، أقبل السامع على الكلام فوعاه، وإلا أعرض عنه، وإن كان الباقي في غاية الحسن"³ وفرقوا بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، وفضلوا براعة الاستهلال على حسن الابتداء، حيث يرى السيوطي أن: "براعة الاستهلال أخص من حسن الابتداء، لأن البراعة لابد فيها من الإشارة إلى ما سيق الكلام لأجله، بخلاف حسن الابتداء فلا يشترط فيه ذلك"⁴ ن غير أن الخطيب القزويني يرى غير ذلك ولا يجد فرقا

بينها حيث يقول: " الخطيب القزويني لا يرى فرقا بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، فكلاهما شيء واحد، وبأيها سميت كنت مصيبا، فأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمى براءة الاستهلال" ⁵، إلا أن كتاباتهم النظرية والتطبيقية في الموضوع تقدم مسحا واسعا لهذه المكونات، بالإضافة إلى وعي منظم بكيفية استخدامها وترتيبها ووظائفها، "ولابد هنا من الإشارة إلى أمر، وهو أن العلماء المسلمين القدامى مارسوا صناعة التأليف في اللغة والنحو والعروض والبلاغة والفقه والأصول والتفسير والأدب والنقد وشروح الشعر وغير ذلك، على أساس أنها جميعا من الأشكال الإبداعية؛ في حين، تقتصر هذه الكلمة في وقتنا الحاضر على القصة والرواية والمسرحية والشعر.

من هنا، كانت المصاحبات جزءا لا يتجزأ من الشكل التأليفي الذي يأتي به الكاتب أيا كان مجال اهتمامه أو نوعه أو شكله. ⁶ فلا يخلو مؤلف من المؤلفات التي ألفها الأدباء والعلماء المسلمون القدامى في جمع التخصصات والموسوعات من الإلمام بهذه العناصر وعيا وتنظيما وتطبيقا، حيث يبرز ذلك في المقدمات والمداخل، كما نجد ذلك الترتيب والتفصيل في الرسائل والفصول والابواب والاقسام، ونجد ذلك في العناوين والتصديرات والاهداءات والمقدمات.

لقد حفل الموروث العربي أيما احتفال بصناعة التأليف والتصانيف والرسائل ترتيبا وتنظيما وتفصيلا في جمع العلوم النظرية والتطبيقية كالنحو والصرف والبلاغة وعلوم الاصول والبلاغة والأدب والتفسير والشروع، إضافة إلى علوم الآلة من جبر وكمياء وبصريات دون أن ننسى الفلسفة وعلم الكلام والمنطق وغيرها، باعتبارها منتجا ابداعيا وليس الامر كما هو الحال في وقتنا أن الابداع خاص بالعلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية فقط، ومنها الشعر والرواية والمسرح فقط. لقد صارت المصاحبات النصية أصلا من أصول التأليف والابداع ولا يستقيم المتن والأصل إلا باستقامة الفروع والحواشي، وبالتالي يمكن أن نجزم أن العرب كان الفضل في هذه النظرية قبل الغرب بقرون...

كتب كثيرة صدرت بمقدمات ذاتية أو غيرية، حيث بدأ التصدير في العلوم العربية مع بداية التدوين وانتشار الكتابة، حيث ازدهر التأليف في العصر الذهبي العباسي منذ القرن الثالث الهجري، حيث كانت المقدمة تسمى : الديباجة، أو الاستهلال، أو الفاتحة، أو التصدير، أو التمهيد، سوقد كانت المقدمة تسمى خطبة، وديباجة، وفاتحة، وتمهيدا، واستهلالا، وتصديرا...وهناك كتب كثيرة استفتحت بمقدمات، نذكر منها: كتاب (طبقات فحول الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي ⁷، ومقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ⁸، ومقدمة كتاب (شرح ديوان الحماسة) لأبي علي المرزوقي ⁹، ومقدمة ابن خلدون لتاريخه المسمى بكتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ¹⁰.

احتوت الدراسات والمؤلفات النقدية العربية القديمة على خطابات مقدماتية حيث كانت تعتبر خطوة وعنصرا أساسيا لا يمكن تجاوزه وذلك باعتباره " سنة واجبة، وضرورة لها شروطها ومواصفاتها التي تختلف كليا، عن شروط المقدمات الحديثة، فيما كان الخطاب التاريخي، كما عرف عند ابن خلدون والطبري والمسعودي، وباقي المؤرخين، يتلبس شكل المدخل، كما تحدث عنه جاك دريدا، إذ يقدم رسالته في شكل تنبيه للقارئ من أغاليط المؤرخين الآخرين، ثم التمهيد ببسط منهجه في التعامل والكتابة، وهي تستند إلى البحث والاستقراء أكثر من السماع. في حين، إن المقدمة

في الخطاب العلمي ترد في مؤلفات الفلك والترجمات الفلسفية، وكتب الرياضيات، وباقي العلوم المجردة التي تعتمد التمهيد الدقيق والمختصر".¹¹

المقدمة خطبة استهلالية، سواء كانت موسعة أو مقتضبة أو لاحقة، تتضمن محاور ثلاثة: أولها، ما هي أسباب الكتابة ودوافعها وأهدافها؛ وثانيها، تحديد المرسل إليه أو المتلقي الذي يمكن أن يكون شخصية مهمة خليفة أو أميرا أو سلطانا أو من عليا القوم، أو متلقيا قارئاً خاصاً أو عاماً... وثالثها، كيف ألف كتابه وأنتج عمله، وهذا يعني ضرورة توفر أسئلة جوهرية ثلاثة: سؤال: لماذا ألف؟ وسؤال: لمن ألف؟ وسؤال: كيف ألف؟

ووما تبدأ به الخطبة أو أي مؤلف افتتاح بمقدمة تتضمن نحتاً بالبسملة والحمدلة والتصلية والتسليم، والإشارة إلى دوافع ودواعي التأليف والكتابة الموضوعية منها والذاتية، تعريف المؤلف وجنسه وخطته ومنهج بحثه، ثم ترتيب المراجع والمصادر التي كانت اعتمد عليها الباحث أو الكاتب، وتقريظ المصنف وهو مدح الكتاب أو الكاتب وذكر سبقه وفضله في التأليف، ثم بيان ما جاء في المصادر السابقة من نقص أو خطأ أو تعديل، وتحديد مكان وزمان الكتابة، والختام يكون بالحمد والشكر.

أما من سار على نهج الأوائل من المتأخرين فهم كثير خاصة عند جماعة المحافظين والإحيائيين، فقد "سار كل من البارودي وشوقي على سنة عربية قديمة في تقديم الشعراء لدواوينهم، ولربما كان أبو العلاء المعري من بين أوائل الشعراء العرب القدماء الذين وضعوا تقدماً، ونذكر - هنا - تقديمه لكل من سقط الزند ولزوم ما لا يلزم، وهي السنة التي اتبعها الشعراء الآخرون عبر العصور المتوالية".¹²

وجاءت كلمة "مقدمة" في مواضع كثيرة متداخلة مع مصطلحات أخرى، كالتمهيد والمدخل والتصدير، والفتحة والمطلع والاستهلال، والخطبة... وغيرها من المصطلحات المتشابهة، ولا نجد في قواميس اللغة ومعاجمها و ما يشير إلى الفرق الجلي بين هذه المصطلحات فيما عدا بعض الاستعمالات المختصة بحقول معرفية معينة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر مصطلح (الفتحة) الذي يختص أكثر بالقرآن الكريم (فاتحة الكتاب)، وكذلك فوائح السور، وهي الحروف الأولى من بعض السور، وأم الكتاب، والمثاني، هي فاتحة الكتاب (القرآن)، "ومعلوم أن العلماء قد خصوا فوائح سور القرآن الكريم بعناية كبيرة، وحاولوا تفسيرها وتقديم تخریجات متعددة بشأنها وبخاصة ما تعلق منها بالسور التي افتتحت ببعض الحروف".¹³

أما مصطلحا "الاستهلال" و"المطلع" فهي مصطلحات خاصة ارتبطت أكثر بالشعر، حيث نقول هذه قصيدة مطلعها كذا، والاستهلال خاص بالمقدمات الطللية التي يصف فيها الشاعر راحلته وفرسه، ويقف ويستوقف، ويكي ويستبكي، ثم يذلف بعدها إلى غرضه الشعري، وتحولت هذه المقدمة الطللية إلى عنصر ملزم لا يمكن للشاعر أن يكتب دون أن يقف ويستوقف ويذكر محبوبته، وخرج هذا العنصر الاستهلالي عن تأدية وظيفته التقديمية التمهيدية المرتبطة بموضوع شعره، مما جعل كثيراً من الشعراء يثرون عليها خاصة في العصر العباسي من أمثال أبي نواس، الذي تمرد عليه واستبدلها بمقدمة خمرية تماشياً مع التغير الذي طرأ على الحياة في العصر العباسي، حيث يقول: "قل لمن يبكي على رسم درس واقفا ما ضر لو كان جلس"، وقد خص النقد العربي قديماً وحديثاً هذه المطالع بالدراسة والتحليل فبحث في دلالة ورمزية المطالع وأبعادها النفسية والفنية والحضارية وغيرها.¹⁴

أما مصطلحات "التمهيد" و"المدخل" و"التصدير" فغالبا ما ترد متلازمة، ولا تكاد في معناها العلمي تخرج عن مفهوم المقدمة، وإن كان بعضهم يجد تخريجا لتمييزها عن بعضها، ففي الموسوعة الفلسفية لروزنتال ترجمت كلمة propedantique بكلمة "تمهيد" وتعني "تدريب أولي ومنهجي وموجز والتمهيدات تسبق الدراسة التفصيلية لفرع المعرفة المطابق والمنهاج المدرسي للفلسفة يستقى أحيانا التمهيدات الفلسفية"¹⁵

أما التصدير في معجم المصطلحات العربية فقد جاء ترجمة للمصطلح الانجليزي foreword والمصطلح الفرنسي preface وتعني: كلمة يكتبها المؤلف في أول كتابه يعبر فيها عن ملاحظات شخصية موجهة الى قارئ الكتاب وينتهي عادة بفقرة الشكر للأشخاص والفئات التي ساعدت المؤلف في بحثه، وقد جرت العادة أن يكتب تصديرا جديدا لكل طبعة جديدة لمؤلف ينص فيه على ما في الطبعة الجديدة من اختلاف عن الطبعة السابقة عليها، ولا يتعدى التصدير الصفحتين أو الثلاث؛ في حين أنّ المقدمة قد نصل إلى طول فصلين من فصول الكتابة.¹⁶

أما المقدمة preface فتمتع بأهمية قصوى ضمن خطاب العتبات لاعتبارات شتى منها ما يرتبط بشكلها، ومنها ما يرتبط ببنائها ووظيفتها...

ولا بدّ هنا من التمييز بين نوعين أو مستويين من المقدمة، مقدمة يمكن أن نسميها مقدمة علم ومعرفة، والأخرى مقدمة تأليف وكتابة، يمكن أن نمثل للأولى بكتاب "المقدمة" لعبد بن خلدون، والذي يعتبر منجزا نظريا في علم الاجتماع وغيره من العلوم المتصلة به كاللغة والثقافة، من الممكن أن يكون جزءا سابق أو تابعا لكتاب العبر، ومنها الكثير مقدّمة في...، أما مقدّمة التأليف فهي كل نص سابق عن متنه أو لاحق له، قصد تقديمه للقارئ ومدّه بمنهج صاحبه وخطته في التأليف وقصده منه، وتدخل في علاقة مع المتن المقدّم له، فهي تعاقّد ضمّني بين القارئ والمؤلف.

ومن أفانين الكتابة وأدب الاستهلال ما تحدّث فيه كثير من اهل العربية واللغة مؤكّدين على أنّ الكتابة فنٌّ قائم بذاته، ولا شكّ أيضًا أنّه ما كلُّ أحد رام خَوْضَ غمار هذا الفنّ نَجح مسعاه، وتحقّق مأربه؛ إذ بعضٌ من تحقّمه لم يستجمع مقوّمات نجاحه، ويمتلك أدواته الضرورية، وأخطر ما ينطوي عليه فنّ الكتابة والإنشاء هو أنّ الكاتب - فيما يكتب - إنّما يعرض قطعةً من عقله على الملاء، قائلاً لهم: احكموا على عقلي!

وقديماً أشار عددٌ من الكتاب والمؤلفين إلى هذه القضية في فنّ الكتابة؛ يقول يحيى بن خالد: "لا يزال الرّجل في فسحة من عقله ما لم يثقل شعراً، أو يُصنّف كتاباً"¹⁷، وبعبارة أخرى أوضح: "لا يزال المرء مستوراً وفي مندوحة، ما لم يصنع شعراً أو يؤلّف كتاباً؛ لأنّ شعره ترجّانُ علمه، وتأليفه عنوانُ عقله"¹⁸.

ويقول الخطيب البغدادي: "من صنّف فقد جعل عقله على طبقٍ يعرضه على الناس"¹⁹، وقيل: "من صنّف كتاباً فقد استهدف؛ فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استئذف"²⁰، و"عقول الرّجال في أطراف أفلأوها"²¹.

يعتبر التقديم أو المقدمة خطابا مصاحباً أو مناصباً مباشراً، موجه في أساسه إلى القارئ أو المخاطب من خلال مرسلة العمل الأدبي الرسالة والمتلقي المرسل إليه،، فهي كما يقول جيران جينيت "كل أنواع النصوص الممهدة لنص ما والتي هي خطاب حول النص"²²، فهي من هذا المنطلق من الخطابات الافتتاحية، فاتحة وتمهيد وديباجة و تنبيه وإخبار"²³، كما أنها ليست حالة سكونية ثابتة ليس لها علاقة بالعمل الأدبي، تنفصل من خلال قراءة مغلقة، رغم أن لها خصوصية بنيوية ودلالية متميزة إلا أنها تشكل جزءاً من مجموع متكامل يقع في بداية العمل، والجدير بالذكر فيما هو معروف في الدراسات الأكاديمية أن المقدمة تكتب في العمل، أي بعد انتهاء العمل الأدبي، وهذا يشير إلى أنها النهاية

البداية، فهي بداية ونهاية في نفس الوقت، وتشبه المقدمة بالبيضة المخصبة التي تتحول خلال عملية الإبداع إلى جنين، ومن ثم إلى جسد إنساني كامل له كل أجزائه، حاكلا في ذاته سلوكا وعافة ومشاعر وأحاسيس، فإذا أصاب البيضة تشوه ما، ظهر ذلك جليا في تفاصيل كيائها اللاحق ولازمه التشويه والقصور.

قد تختلف المقدمات باختلاف الطبقات وكذلك شروط الزمان والمكان المتحركة في كتابة المقدمة، والملاحظ كذلك أن هذه المقدمات توجد إما في أوائل العمل الأدبي أو في آخره، وهذا التوقع له دلالاته، وهذه العتبة ليست ظاهرة حديثة أو معاصرة، بل إن المصنفات القديمة والحديث شعرا كانت أو نثرا، فإن مبدعها وضعوا تقدما لكتاباتهم، "تكتسي أهمية مركزية كمدخل للكتاب لاحتوائها لمعلومات تساعد كثيرا في فهم طبيعة ودواعي تأليفه وتحديد موضوعه" ²⁴

تعتبر مقدمة أبي العلاء المعري في لزومياتهن أو مقدمة الجاحظ في كتاب الحيوان حيث يقول: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء تبين حجة طريقة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجبية" أو مقدمة البيان والتبيين، أو مقدمة ديوان السياب التي وضعها ناجي علوش، ومقدمة مطران خليل مطران، ومقدمة ناجي علوش لديوان السياب، ويمكن أن نميز بين نوعين من المقدمات: مقدمة غيرية أو من وضع مبدع آخر أو ناقد معين، ومقدمة ذاتية من وضع المؤلف نفسه، وقد تكون المقدمة من قبل الناشر صاحب دار النشر أو تكون من قبل مقدم وهي افتراضي، تتخذ هذه المقدمات طابعا سجاليا أحيانا، بين الكتاب، و مجالا للرد و طرح الأفكار النقدية والأدبية، و تقتحم المقدمة باعتبارها ملحقا مباشرا النص الأدبي، وبهذا تظهر أهميتها وخطورتها بالنسبة للعمل الأدبي، ولا تقل شأنًا عن عتبة العنوان والإهداء والتي تشكل بنية تركيبية ووظيفية تتحكم فيها عدة سياقات ثقافية واجتماعية وإشهارية وتاريخية ونصية تختزل جانبها مركزيا من منطق الكتابة ²⁵.

المقدمة تدشين للنص، وفرصة لخلق تلك العلاقة الممكنة بين المتلقي والنص، يقدم له آليات مسبقة لقراءته، لكن في حالات كثيرة، قد تكون إساءة حقيقية لجوهر العمل الإبداعي الذي يفترض فيه الانفتاح وتعدد قراءاته، إن العمل الجيد لا يحتاج إلى تقديم حسب جينيت ²⁶، فالتقديم وإن كان مدخلا مهما لقراءة العمل الأدبي فإنه يفقده الكثير من دلالاته، بل ينسج وساطة غير مرغوب فيها بين المبدع والمتلقي ²⁷. ولعل السبب يعود فيما نعتقد إلى أن المقدمة غيرية كانت أو ذاتية قد تفرض بوعي أو دون وعي شروطا على القارئ، ولن نسمع له بإعادة بناء النص وتأويل دلالاته، من منطلق أنه نص إبداعي تخيلي.

يقول باسكال: "إن آخر شيء تجده عندما تؤلف كتابا، هو أن تعرف الشيء الذي يجب وضعه في البداية" ²⁸. ولابد من ملائمة مقدمة المكتبة لموضوعها وكذلك للفن الذي تنتمي إليه حيث يأتي الكاتب في ابتداء المكتبة ببراعة الاستهلال المطلوبة في كل فن من فنون الكلام، وذلك بأن يأتي في صدر المكتبة بما يدل على عجزها، فإن كان الكتاب بفتح، أتى في أوله بما يدل على التهنئة، أو بتعزية، أتى في أوله بما يدل على التعزية، أو في غير ذلك من المعاني، أتى في أوله بما يدل عليه، ليعلم من مبدئ الكتاب ما المراد منه.

الخاتمة:

يشارك في توظيف المقدمة واستعمالها الشعراء والخطباء والكتاب وغيرهم، أما الخطباء فإن عاداتهم جارية بافتتاح خطبهم بفنون محامد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. وأما الشعراء فإن عاداتهم جارية

أن يفتتحوها قصائدهم بالتشبيب الرقيق والغزل، وأما الكتاب فإن عاداتهم جارية أن يفتنوا في المقدمات التي يقدمونها أمام رسائلهم بحسب أفنان أغراضها.

ويمكن أن نوجز ما وصلنا إليه في شكل نقاط نستمدّها من وظيفة المقدمة ذاتها وهذه الشروط هي التي تتحكم في نوعية المقدمة:

- الغاية من العلم المقدم .
- الفائدة: وهي دافع له لتحصيل العلم والصبر في طلبه.
- العلامة والسمة: وهي عنوان المؤلف والوثيقة بين الملقّي والمُتلقي.
- المؤلف وهو مصنف الكتاب ليحصل بينها التآلف ويقبل المتعلم على هذا المعلم.
- مجال العلم؛ أي من اليقينيات أو الظنّيات، من النظريات أو العمليات، من الشرعيات أو غيرها ليطلب المتعلم ما يليق به من المسائل المطلوبة له.
- مرتبة العلم؛ أي بيان مرتبته فيما بين العلوم إما بعموم موضوعه أو خصوصه أو باعتبار توقفه على علم آخر أو عدم توقفه عليه باعتبار الأهمية أو الشرف ليقدم تحصيله على ما يجب أو يستحسن تقديمه عليه، ويؤخر تحصيله عما يجب أو يستحسن تأخير عنه.
- القسم، وهي بيان فصله أو بابه أو مبحثه.
- المنهج، وهي الطريقة المنتهجة في طلب العلم.

المصادر والمراجع:

- الذهبي "سير أعلام النبلاء"، ج 18، تحقيق فئة من الباحثين، دار الرسالة، دمشق ط 10، 1994 .
- عباس رحيلة، مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط 2003، 1، الفصل الثاني.
- عبد الملك اشهبون عالم الفكر المجلد 33 / العدد 2 / أكتوبر / ديسمبر 2004 .
- عبد النبي ذاكر عتبات الكتابة دار وليلي للطباعة و النشر مراكش ط 1 / 1998
- مصطفى سلوي: مصاحبات النص: في عتبة المقدمة كما فهمها العلماء المسلمون القدامى، في موضوع: (عتبات النص: نحو مقارنة أولية) ، أيام: 24 - 25 - 26 يناير 2001 م.
- ياسين النصيرن الاستهلال: فن البدايات في النص الأدبي، دار نينوى، دمشق، 2000.
- ياقوت الحموي ، "معجم الأدباء" ج 1، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب - بيروت 1993م.
- يُنسب للجاحظ كما في "زهر الآداب" للحضرج 1 تعليق زكي مبارك، نشر دار الجيل: بيروت ط 4؛ و "العمدة في صناعة الشعر ونقده" .
- يوسف الإدريسي، عتبات النص (بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر)، مرجع سابق.
- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1991م.
- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث: بنياته وأبدالها، الجزء الأول، التقليدية، دار توفيق للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1989م.
- مصطفى الشليح أحلام الفجر ذبذبات التمرد على التميّط في القصيدة المغربية / مجلة المناهل العدد 51 / السنة 21 / يونيو 1996.
- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، المطبعة الهبة، مصر، بدون تاريخ للطبعة.
- ابن رشيق القيرواني، "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، ج 1، تحقيق: النبوي عبدالواحد شعلان، نشر الخانجي، القاهرة 2000م.
- ابن قتيبة "عيون الأخبار" ج 1 ، نشر دار الكتب العلميّة، بيروت..
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة ، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1980م.
- أحمد المنادي علامات في النقد المجلد 16 / الجزء 61 / ماي 2007 .
- الإيضاح للخطيب القزويني ص 485 ط الآداب

الموسوعة الفلسفية، روزنتال.

الوشاح للكرمي 3/ 254 ط 1375هـ.

د- شعيب حليفي، هوية العلامات، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2005م.

عبد الفتاح الجحمري، عتبات النص البنية و الدلالة، منشورات الرابطة البيضاء 1996.

عز الدين العلام الآداب السلطانية عالم المعرفة، الكويت ع 324، فبراير 2006.

محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

معترك الأقران للسيوطي 1/ 75 ط مصر

معجم المصطلحات العربية.

- عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2000.

- يوسف بكار، بناء القصيدة في النقد العربي، دار الأندلس 1982.

الإحالات:

- 1- يوسف الإدريسي، عتبات النص (بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر)، مرجع سابق، ص 19.
- 2- انظر عتاس رحيلة، مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط 2003، 1، الفصل الثاني.
- 3- الوشاح للكرمي 3/ 254 ط 1375هـ
- 4- معترك الأقران للسيوطي، 1/ 75 ط مصر
- 5- إيضاح للخطيب القزويني، ص 485 ط الآداب
- 6- مصطفى، سلوى: مصاحبات النص: في عتبة المقدمة كما فهمها العلماء المسلمون القدامى، في موضوع: (عتبات النص: نحو مقارنة أولية)، أيام: 24 - 25 - 26 يناير 2001 م. ص: 1.
- 7- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
- 8- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1980م.
- 9- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1991م.
- 10- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، المطبعة النبوية، مصر، بدون تاريخ للطبعة.
- 11- شعيب حليفي، هوية العلامات، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2005م، ص 53.
- 12- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث: بنياته وأبدالاتها، الجزء الأول، التقليدية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1989م، ص 85.
- 13- ينظر عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص 35.
- 14- ينظر يوسف بكار، بناء القصيدة في النقد العربي، دار الأندلس 1982.
- 15- الموسوعة الفلسفية، روزنتال 141.
- 16- معجم المصطلحات العربية، ص 104.
- 17- ياقوت الحموي، "معجم الأديباء" ج 1، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب - بيروت 1993م، ص 11.
- 18- ابن رشيق القيرواني، "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، ج 1، تحقيق: النبوي عبدالواحد شعلان، نشر الخانجي، القاهرة 2000م، ص 181.
- 19- الذهبي "سير أعلام النبلاء"، ج 18، تحقيق: فتحة من الباحثين، دار الرسالة، دمشق ط 10، 1994 م، ص 281.
- 20- يُنسب للملاحظ كما في "زهر الآداب" للحصريج 1 تعليق زكي مبارك، نشر دار الجليل: بيروت ط 4؛ و "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، ص. 183.
- 21- ابن قتيبة "عيون الأخبار" ج 1، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ص 107.
- 22- أحمد المنادي علامات في النقد المجلد 16/ الجزء 61/ ماي 2007 ص 144
- 23- عبد النور، ذاكر عتبات الكتابة دار وليم، للطباعة والنشر مراكش ط 1/ 1998 ص 9
- 24- عز الدين العلام الآداب السلطانية عالم المعرفة، الكويت ع 324، فبراير 2006، ص 42.
- 25- عبد الفتاح الجحمري، عتبات النص البنية و الدلالة، منشورات الرابطة البيضاء 1996، ص 16.
- 26- عبد الملك اشهبون عالم الفكر المجلد 33/ العدد 2/ أكتوبر / ديسمبر 2004 ص 89.
- 27- مصطفى الشليخ أحلام الفجر ذبذبات التمدد على التنميط في القصيدة المغربية / مجلة المناهل العدد 51 / السنة 21 / يونيو 1996 ص 163.
- 28- ياسين النصير الاستهلال: فن البدايات في النص الأدبي، دار نينوى، دمشق، 2000، ص 11.